التعريف والنقد

البلاد العربية والدولة العثمانية

لأبي خلدون ساطع الحصريّ : في ٢٨٧ صفحة ،
طبع دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٩٦٠

من الناس من لا يحتاج إلى تعريف كالأستاذ ساطع الحصري الذي عرفه قومه العرب وهو بين الترك قبل الحرب العالمية الأولى ، علماً من أعلام الدولة العثمانية وكاتباً مبيناً في التركية من أكبر كتّابها ، وإماماً في التربية الصحيحة لمربّيها المشهورين ، وعرفناه في الدولة العربية الفيصلية في الشام والعراق من بواعث القومية العربيّة والنهضة التعليمية . وعرفناه بعد أن انضم إلى قومه العرب سنة ١٩١٩ يدرس لغته العربية دراسة عملية ، ويتمرّس على الكتابة والخطابة بها حتى أصبح من كتّابها ومؤلفيها المحققين . وكتابه هذا يؤيّد ذلك فان هذا الكتاب الممتع يتضمّن الاتفاقات السرية التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية الكبرى قبيل الحرب العالمية الأولى .

ويتضمن مما لا يسع عربياً جهله من استيلاء الأتراك على البلاد العربية والاتجاهات السياسية بين الهيئات العربية ، ثم انحسار الحكم العثماني عن البلدان العربية ، وتدخّل الدول الأوربية في شؤون الدولة العثمانية الداخلية ، فيتكلم على احتلال الجزائر وتونس ومصر وطرابلس الغرب وعلى اقتسام مناطق النفوذ في آسية العثمانية ، ويشرح لنا قضية سكة حديد بغداد ، ويكشف الحجاب عن الاتفاقات العثمانية البريطانية (١٩١٣ — ١٩١٤) كاتفاقية شط العرب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والملاحة النهرية والسكك الحديدية واتفاقية المحميات وحضرموت ، وفي آخر كتابه بيان تاريخي قويم للإيالات العربية في أوائل القرن السابع عشر وللولايات العربية في أوائل القرن الحاضر ؛

ومن دلائل تحقيق الكتاب وأن صاحبه لا يكتفي بنقل الوقائع والأخبار بدون تمحيص واستقصاء ، فهو من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأصدقه ، منها مسألة انتقال الخلافة من العرب إلى الترك فانا نرى جميع كتب التاريخ تقول : إن آخر الخلفاء العباسيين بمصر المتوكل على الله قد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم العثماني في القاهرة أو في القسطنطينية ولكن الأبحاث التاريخية لا تؤيد ذلك بل تؤكد أن هذه الرواية أسطورة تكونت بعد فتح مصر ووفاة السلطان سليم بمدة طويلة .

ويثبت المؤلف قوله هذا بأدلة كثيرة منها :

أن المؤرخ ابن أياس المعاصر لاستيلاء العثمانيين على مصر دوّن في كتابه بدائع الزهور كثيراً من الوقائع المفصّلة ، ولم يذكر شيئاً عن الخلافة وانتقالها ، مع أنه يذكر سفر الخليفة إلى القسطنطينية والأخبار التي وردت منه في حياته وبعد وفاته ، وجلوس ابنه السلطان سليمان على العرش ، وكان كما ذكر المتوكل على الله لقبه بالخليفة ، وكما ذكر سليماً وسليمان لقبها بالسلطان .

ومنها أنه لا يوجد تاريخ تركي كتب في عهد السلطان سليم الا (منشآت فريدون بك) الذي سجل ما فعله هذا السلطان منذ مغادرته العاصمة بغية فتح مصر حتى عودته إلى عاصمة ملكه ، ولم يذكر كلمة عن قضية الخلافة ، وهو حينما يذكر الخليفة يصفه بالعبارة التالية : « الخليفة المتوكل على الله مولانا محيي الدين من آل العباس الذي هو بقية الخلافة العباسية في المحروسة المصرية . »

وأقرب التواريخ العثمانية إلى عهد السلطان سليم هو المعروف باسم تاج التواريخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفيه بحث طويل عن هذا السلطان ، ولم يذكر شيئاً عن الخلافة ، وكاتب هذا التاريخ كان ابن شيخ الإسلام الذي رافق السلطان سليمان خلال سفره الى مصر ، فلو أنه حدث تبدلٌ ما في أمر الخلافة خلال وجود السلطان في مصر أو بعد عودته الى القسطنطينية لكان قد اهتم بذكره الاهتمام كله .

وهكذا يثبت المصنّف أن رواية انتقال الخلافة العباسية الى الترك قد اختلقت بعد عهد السلطان سليم بزمن طويل ، ذلك لأن سلاطين آل عثمان لم يهتموا بادئ الأمر بالخلافة ، ولمّا أرادوا الانتفاع بها ، اختلقها ساسة الترك ومؤرخوهم وذلك لاعتقاد المسلمين بها ، ومثل هذه العقيدة قد قوّت نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها للعرب تسهيلاً كبيراً ، كما أنها أخّرت نشوء القومية العربية تأخيراً كثيراً .

ومن أوهام الطبع التي قلما خلا كتاب منها كتابة الإيالة بهمزة فوق الألف كما جاء في الصفحة (٣١/٥) وصواب رسمها بأن توضع تحت الألف لأن الإيالة بمعنى الولاية والسياسة ؛

وفي الصفحة (٣١/٤ و ٣٤/١٠) : أصحاب التيارات والزعامتات ، وصواب القول : والزعامات ؛

وفي الصفحة (٣٣/٨) : ينصب لكل منها قاضي أو نائب قاضي ، والصواب : قاضٍ أو نائب قاضٍ ؛

وفي الصفحة (١١٧/١٤) : تعرضت الى ثورات واغتشاشات عديدة ، وصواب القول : الى ثورات وفتن مثلاً ؛

وفي (١٣٢/٣) : ها إن الدولة قد عجزت ، بدل ها هي ذي الدولة قد عجزت .

وجاء في (١٣٨/٥) : عبد المجيد الزهراوي ، والرجل هو الشهيد عبد الحميد الزهراوي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبعد : فقد عرف العرب الأستاذ الحصري من أئمتهم في التربية والتعليم ، وعرفوه بما كتبه في القومية العربية من دعاتها المخلصين ، وكتابها السياسيين ، وبما كتبه عن ابن خلدون من حماة التاريخ العربي ، وهذا الكتاب حسنة جديدة من حسناته على الثقافة العربية .

التنوخي